

مراكز التصوف وزواياه بالمغرب

الدرس
21

أهداف الدرس

1. أن أتعرف أهم مراكز التصوف وزواياه بالمغرب .
2. أن أتبين الآثار التربوية والاجتماعية للزوايا في المجتمع المغربي .
3. أن أستشعر مسؤولية العالم المربي ووظيفته في المجتمع .

تمهيد

الحديث عن رجال التصوف وأربابه يقتضي بيان المراكز والزوايا التي تلقى فيها هؤلاء الأعلام علمهم وتركيتهم ، ونشروا فيها فكرهم وتربيتهم ، فكانت لها وظائف أثمرت نتائج علمية وتربوية واجتماعية في مختلف مراحلها التاريخية .

فما هي أهم مراكز التصوف وزواياه بالمغرب ؟ وما أهم وظائفها في المجتمع ؟

نص الانطلاق

قال محمد حجي - رحمه الله - : «لم تعرف الزاوية في المغرب إلا بعد القرن الخامس الهجري ، وسميت في بادئ الأمر «دار الكرامة» كالتي بناها يعقوب المنصور الموحي في مراكش ، ثم أطلق اسم «دار الضيوف» على ما بناه المرينيون من الزوايا ، كالزاوية العظمى التي أسسها أبو عنان المريني في خارج فاس ، وهي التي ذكرها ابن بطوطة في رحلته . . . ، ومن أقدم الزوايا في المغرب زوايا الشيخ أبي محمد صالح الماجري (ت : 631هـ) وقد تعددت زواياه حتى بلغت ستا وأربعين ؛ إذ كان هذا الشيخ يشجع أصحابه على حج بيت الله الحرام ، واستكثر من اتخاذ الزوايا في الطريق التي يسلكها ركبُ الحجاج ليأووا إليها في سفرهم الطويل . وفي القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) تكاثرت الزوايا في المغرب ، ونمت حولها مدارسُ استقر فيها طلبة العلم ، الأمر الذي حدا بملوك بني مرين أن يشيدوا

كذلك مدارس بجانب المراكز التعليمية الكبرى خصوصا جامع القرويين بفاس...، وتطور أمر الزوايا بالمغرب خلال القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي)...، وتكاثرت الزوايا في المغرب خلال القرنين العاشر والحادي عشر للهجرة...، وأشهر هذه الزوايا في القرن الحادي عشر الهجري ثلاث: الزاوية الدلائية، والناصرية، والفاسية، ولم تكن هذه الزوايا بمعزل عن بعضها بالرغم من تباين مواقعها، ولكنها كانت تتصل عن طريق التزاور والتراسل، والأخذ والعطاء...، وما أشبهها في تلك الظروف الحالكة بمنازل شامخة تشع بالإيمان والعرفان في وسط المغرب وشماله وجنوبه...، وإلى جانب هذه المراكز الدينية العظيمة كانت الزاوية العياشية -وهي رابية الزاوية الدلائية- تقوم بدور مماثل في منحدرات الأطلس الكبير المطلة على أراضي تافيلالت ووحدات الصحراء».

[الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي، لمحمد حجي، ص 23-24 بتصرف].

الفهم

الشرح:

استخلاص المضامين:

- **المريونيون:** تأسست الدولة المرينية سنة 1248م، على يد السلطان أبي يوسف يعقوب المريني، وحكمت الدولة المرينية المغرب من القرن الثالث عشر إلى القرن الخامس عشر ميلادي.

- أستخلص من النص بعض وظائف الزوايا في المجتمع المغربي.

التحليل

أولا: مفهوم الزوايا وتاريخها ونظامها

1. مفهوم الزوايا

يقصد بالزوايا مؤسسات التصوف ومراكزه التي تكون منطلقا للأنشطة الدينية والاجتماعية والعلمية، وتسهم في نشر التصوف وترسيخه في المجتمع. وبمعنى أخص يقصد بالزاوية المكان الذي يجتمع فيه شيخ مع أتباعه ومريديه وتلاميذه للعبادة والتعليم، وقد يوظف المكان لإطعام وإيواء، وغيرها من الوظائف الدينية والتربوية والاجتماعية؛ فالزاوية «عبارة عن مكان مُعد

للعباداة، وإيواء الواردين المحتاجين وإطعامهم» [الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي، ص 23] ويرى الدكتور عباس الجراري - رحمه الله - أن مصطلح الزاوية «لم يكن شائعاً عند المغاربة قبل القرن السابع الهجري، وربما كانت الزاوية المقامة لأبي محمد صالح في منتصف هذا القرن بآسفي من أولى المؤسسات التي حملت هذا الاسم بالمغرب» [مجلة دعوة الحق، عدد 264]. فاسم الزاوية يحمل دلالة إحصانية قائمة على الإكرام والضيافة والتركية.

2. تاريخ الزوايا

من دواعي تأسيس الزوايا التشبُّه والاقتداء بما كان من أمر أهل الصفة في زمن النبي ﷺ التي كان يأوي إليها الفقراء، فكان الاقتداء بما كان، وامتد ذلك إلى المغرب بما عرفه من مجموعة من الرباطات منذ عهوده الأولى، ومنها: رباط «تيط نفطر» أو «تيطن فطر» ومعناها العين ومنبع الماء، أو «تيطن فطر» أي عين «أنفطر» ومعنى «أنفطر» إناء معروف من قديم يشبه المُد الذي به تُحسب زكاة الفطر، وهو من أقدم الرباطات بالمغرب الأقصى، وجوده سابق عن العهد المرابطي، وهو معروف اليوم على بضعة أميال جنوبي مدينة الجديدة، على شاطئ المحيط من بلاد أزموور. [ينظر «حاشية» التشوف إلى رجال التصوف، ص 209]. وقد انتشرت الزوايا وتأسست «في عصر ازدهار الحركة الصوفية بالمغرب وفي زمن متقارب (أواخر القرن العاشر الهجري) باستثناء الزاوية العياشية التي تأخر تأسيسها قليلاً إلى أواخر القرن الحادي عشر» [الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي، ص 60]. ومراكز التصوف وزواياه بالمغرب عميقة الجذور في المجتمع المغربي «فالمغرب مسلم بأصوله وتاريخه وسيرورته الحضارية، وإسلام المغرب يشكل عموداً فقرياً في تاريخ المغرب، وليس دور الزاوية والصالحين في جهاد المستعمر وإصلاح المغرب بغريب عن القارئ المطلع» [المطرب بمشاهير أولياء المغرب، ص 9 بتصرف].

3. نظام الزوايا، يختلف نظام الزوايا من زاوية إلى أخرى، مع اتفاق في المقصد والهدف؛ فهي ليست أماكن مفتوحة دون منهج ونظام، بل فيها شيخ أو شيوخ لكل منهم وظيفة التي يقوم بها، وهم مراتب ودرجات، والشيوخ ثلاثة: شيخ التعليم، وشيخ الترقية، وشيخ التربية. ولكل واحد شروط وصفات تؤهله لهذه المشيخة.

ثانياً: أهم مراكز التصوف وزواياه بالمغرب

في المغرب عشرات الزوايا والمراكز الصوفية، ولا يتسع المقام لذكرها جميعاً، ويكفي الاقتصار على التعريف ببعضها في هذا المقام، ومنها:

– **الزاوية الدلائية**، قال محمد حجي – رحمه الله – «لا نعرف بالضبط متى وجدت الزاوية الدلائية، غير أنه يمكننا الاطمئنان إلى القول بأن تأسيسها كان في الثلث الأخير من القرن العاشر الهجري حوالي عام 974هـ، أسسها أبو بكر محمد بن سعيد الدلائي بإشارة من شيخه أبي عمرو القسطي. فقد ذكرت كتب التراجم أن هذا الشيخ كان يكرم الواردين على زاويته بمراكش بحسب أقدارهم وطبقاتهم...، ولا يقتصر مدلول الزاوية الدلائية على هذا المسجد الخاص الذي أسسه أبو بكر وإنما يشمل كافة القرية القائمة حوله بدورها وأسواقها ومساجدها وسائر مرافق الحياة الضرورية لها». [الزاوية الدلائية، ص 31 بتصرف].

– **الزاوية الناصرية**، تقع الزاوية الناصرية بتامكروت على ضفاف وادي درعة وراء الأطلس الكبير، بعيدة عن مركز زاكورة بنحو 22 كلم في جنوبها الشرقي. أسسها أبو حفص عمر بن أحمد الأنصاري عام 983هـ واستقر بها حفيده الصوفي الصالح أحمد بن إبراهيم الأنصاري مع شيخه عبد الله الرقي الذي كان يلقي فيها أوراद الشاذلية. وقد جاء أبو عبد الله محمد بن ناصر الدرعي إلى زاوية تامكروت عام 1040هـ لأخذ الطريقة عن الشيخ عبد الله بن حسين. وأقام ابن ناصر في هذه الزاوية، وأقبل على التدريس ونشر العلم فيها، وقصده الطلاب من مختلف جهات الصحراء. [الزاوية الدلائية، ص 61]. وكل من الطريقتين الدلائية والناصرية تتصلان بالإمام الشاذلي عن طريق الشيخ أحمد زروق.

– **الزاوية الفاسية**، الشيخ الأول لهذه الزاوية هو أبو المحاسن يوسف الفاسي، ولد ونشأ بمدينة القصر الكبير وأخذ فيها عن الشيخ عبد الرحمن بن عياد الدكالي المعروف بالمجذوب ولازمه إلى أن توفي عام 976هـ فتصدر بعده أبو المحاسن الفاسي للمشيخة وتربية المريدين، وانتقل إلى مدينة فاس 988هـ، وأسس مسجدا ومنازا وزاوية وبعد مدة أمر أصحابه بتطوان ببناء رابطة هنالك لأورادهم وأحزابهم واجتماعهم للذكر والتذكير، فبنوها في العيون منها وقام الرسم بها أحسن قيام، ولم تزل الصلوات راتبة لها، ورسوم الخير من تلاوة وذكر وغيرها ثابتة فيها، واسم الزاوية جاريا عليها ووقف الناس عليها أوقافا. وهكذا أسس الشيخ أبو المحاسن الفاسي أواخر القرن العاشر الهجري زاويتين إحداها بحي المخفية بفاس، والأخرى بحي العيون بتطوان، كان يجتمع فيها أصحابه من المريدين. [الزاوية الدلائية، ص 60].

ثالثا: وظائف مراكز وزوايا التصوف بالمغرب

رغم أن وظائف الزوايا متعددة في الواقع فقد «كان الغرض الرئيسي لمؤسسي هذه الزوايا صوفيا محضا يرمي إلى هداية الناس وتهذيب أخلاقهم بنشر تعاليم الطريقة الشاذلية ثم تطور نشاطها

فأصبحت مراكز علمية هامة تشد إليها الرحال» [الزاوية الدلائلية، ص 60]. ومن وظائفها:

1. الوظيفة الروحية، وتقوم على تلبية الحاجيات الروحية للإنسان التي هي جزء من طمأنينته وسعادته، وذلك بما يكون فيها من تفرغ للعبادة، وذكر ودعاء واجتماع لمدارسه الكتاب في مجالس تتنزل فيها السكينة وتغشاها الرحمة.

2. الوظيفة العلمية، وذلك من خلال ما تتكفل به من أجور بعض المعلمين والقائمين على أمور الزاوية وصيانتها والعناية بمرافقها، وقد تمكنت الزوايا في المغرب من تكوين علماء ربانيين، وأدت وظائف علمية وثقافية وتركوية مؤسّسة ومكمّلة دور المساجد والمدارس بما يدرس فيها من علوم، وما يختم فيها من كتب، وما تقيمه من جلسات ذكر وتربية. وأثمرت عناية الزوايا بطلبة العلم نهضة علمية في المجتمع المغربي، سيما ما يتعلق بعلوم الشريعة.

3. الوظيفة الاجتماعية، وذلك بما تقوم به من خدمات اجتماعية متعددة، كالإيواء، والإطعام، فالزوايا في مختلف مراحلها كانت إقامة لطلبة العلم وبعض عابري السبيل، وهي مظهر من مظاهر التكافل الاجتماعي بما يتولاه أهل الفضل من إنفاق، وما يكون من عطاء، وكم هي الزوايا التي بُنيت من أموال المحسنين، وينفق عليها فرد أو جماعة من الناس، كل يقوم بوظيفة معينة تجاهها. واستطاعت بخدماتها أن تحقق أمنا واستقرارا اجتماعيا بما تولته من تربية وإعداد للناشئة، وبث للسكينة في نفوس الأغنياء والفقراء، ونشر لمعاني الرضا والقناعة، بما توفره للمحتاجين من طعام وكسوة بما يغنيهم عن الانحراف ويعينهم على الاستقامة، فضلا عما تقوم به من حل للنزاعات بين الناس، ونشر للأخوة والمحبة فيما بينهم، فغدت بذلك من أهم مؤسسات الإصلاح الاجتماعي بما تقوم به من وظائف متعددة، سواء الوظائف الروحية، أو الخيرية، أو الاجتماعية.

4. الوظيفة التربوية، بما تحقّقه من تهذيب وتربية وتخلق، وترويض للنفس على الفطام عن المألوفات، ثم التحلي بالفضائل ومكارم الأخلاق، وتهذيب النفس وتركيتها، وصونها عما يشينها، وحفظها من كل ما يضرها «فحياة الصوفية عبارة عن سلسلة ذهبية من العهود والتوجيهات والوصايا والإرشادات والتطبيق القولي والعمل والاعتقادي والحالي، وما أسست الزوايا وأقيمت إلا لهذه المهمات؛ فليست الزوايا إلا مدارس عملية وأخلاقية وتهذيبية يخرج منها جماعات إثر جماعات من المؤمنين الصادقين المخلصين المحبين»

وما سلف بيانه من وظائف للزوايا هي التي ينبغي الحفاظ عليها وحفظها من كل ما ينحرف بها عن مسارها، قال العلامة عبد الله التليدي «إننا لا ننكر أن طريق القوم قد دخل فيه متطفلون، وظهر فيه أذعياء ودخلاء بعيدون عن أهلها الصادقين المخلصين بُعد ما بين السماء والأرض،

ولكن ذلك لا يضر الطريق ولا يشينها، ومن حاول انتقاد طريق الصوفية لما ظهر في أهلها من الانحراف والميوعة فلينتقد أصل الإسلام وليطعن فيه؛ لأن أهله المنتسبين إليه اليوم قد خرجوا عنه وانحلوا منه وكفى بذلك خطأ» [المطرب بمشاهير أولياء المغرب، ص 10 بتصرف].

رابعاً: الزوايا صلة وصل بين المشرق والمغرب

الزوايا وظائفها متعددة، ومنها الوظيفة العلمية التي يكون فيها التأثير والتأثر «ولمعرفة المسارب التي تغلغل منها التصوف إلى المغرب يجب أن نذكر أبا مدين شيخ العارف الرباني الكبير مولاي عبد السلام بن مشيش، أما شيخه الثاني، فهو السيد المدني الزيات، ومن مولاي عبد السلام استمد إمام التصوف أبو الحسن الشاذلي مؤسس الطريقة الشاذلية رضي الله عن جميعهم، وقد جدد الطريقة الشاذلية في القرن التاسع الإمام محمد بن سليمان الجزولي» [التصوف الإسلامي في المغرب، ص 17].

ثم ما لبثت أمور التصوف تزداد انتشاراً في المجتمع وتأثراً بالمشرق وتأثيراً فيه، ولم يقتصر ذلك على الخاصة بل ظهر أثره في العامة «وفي القرن السادس أسس رباط «تينمل» مهد الموحدين، كما أسست الطائفة الشعبية لمولاي أبو شعيب السارية أيوب بن سعيد الصنهاجي، دفين مدينة أزموور، وقد تتلمذ على مولاي أبو شعيب سيدي أبو يعزى، صاحب المنزلة الكبرى في الولاية والصلاح التي استحق معها ليزوره في جبل عروجان الشيخ العارف أبو مدين شعيب...، وكان الشيخ أبو مدين قد حج وأخذ عن العارف الأكبر مولاي عبد القادر الجيلاني، دفين بغداد، وهو بدون شك ممن حملوا القادرية إلى المغرب، وانتقل أبو مدين لزيارة الشيخ علي بن حرزهم الذي كان يبشر بمبادئ الإمام الغزالي التي أخذها عن عمه صالح بن حرزهم. ومن المعلوم أن صالحاً أخذ عن الغزالي نفسه في المشرق، وكان من مريديه» [التصوف الإسلامي في المغرب، ص 17].

وأثمرت الرحلة والتلقي في مختلف البلدان علماء وصلحاء، منهم من وفد واتخذ المغرب وطناً له، كما هو الشأن بالنسبة لسيدي عبد الله الياقوري الذي أخذ عن شيوخ التربية، وأسس زاوية لنفسه بقصد التربية والإرشاد، وهو شيخ الإمام ابن عاشر، ونقل الأستاذ عبد الله الجارري أن الإمام «الياقوري» «رحل إلى المغرب - من الأندلس - وجاء مدينة الرباط بعدما أخذ عن شيوخ التربية، وأنه أسس زاوية لنفسه بقصد التربية والإرشاد وهي الزاوية الغربية التي ب «شالة» عن يسار الداخل من بابها الكبير، ومن الذين أخذوا عنه بها الإمام الشهير العارف سيدي أحمد ابن عاشر دفين سلا» [ورقات في أولياء الرباط ومساجده وزواياه، ص 24].

ومختلف الزوايا والمدارس الصوفية بالمغرب لها أسانيدُها في طريقتها في التصوف، وعلى سبيل المثال «تعاليم الشاذلية مستمدة من مبادئ الجنيدي، عن طريق الطائفة القادرية، التي أخذ

مؤسسها مولاي عبدالقادر عن الغزالي ، ولكنها تتصل بالغزالي عن طريق محمد بن علي بن حرزهم فتأخذ عنه رأسا العقيدة الأشعرية ، فالشاذلية أشعرية في الاعتقاد ، قادرية في التصوف ؛ أي جنيدية غزالية» [التصوف الإسلامي في المغرب ، ص 111].

التقويم

1. أذكر أهم الزوايا ومراكز التصوف بالمغرب .
2. أبين وظائف الزوايا في المجتمع المغربي .
3. أبرز أثر الزوايا في الصلات العلمية بين المشرق والمغرب .

الاستثمار

قال العلامة عبد الله التليدي -رحمه الله-: «في التصوف حق وباطل ، وفي الزاوية مد وجزر ، ونؤكد لإخوتنا أننا نقتنع تماما أن الزاوية بعد سقوط الدولة السعدية ضعف أمرها ونشاط أهلها ، حتى جاء عصر مولاي العربي الدرقاوي فأحيها بإخلاصه وصدقه وانتشرت الطريقة ، وجددت الزوايا في سائر أنحاء المغرب وأصبح لها سوق نافقة...» .

[المطرب بمشاهير أولياء المغرب ، للتليدي ، ص 8].

أتأمل النص ، وأستخرج منه أثر العلماء في إحياء ما اندرس من أمر الدين .

الإعداد القبلي

أبحث عن خصائص التربية الصوفية عند صوفية المغرب .